(تبذير فى مال وحفظ لمال)

وعبتمُوني حينَ زعمتُ أنَّ التَّبْذِيرَ إلَى مالِ القِمارِ ، ومالِ المِيراثِ ، وإلى مالِ الالتِقَاطِ ، وجِباءِ الملوكِ[1] ، أسْرَعُ ؛ وأنَّ الحفْظَ إلى المالِ المُكْتَسَب ، والغِنَى المُجْتَلَب ، وإلى ما يُعْرضُ فيهِ لذَهَابِ الدِّينِ ، واهتِضامِ العِرضِ ، ونَصَبِ البَدَنِ ، واهتمام القلْبِ أسْرَعُ ؛ وأنّ مَنْ لم يَحْسُبْ ذهابَ نفقتِه ، لم يَحْسُبْ دَخْلَه ، ومن لم يَحْسُبِ الدَّخْلَ فقدْ أَضَاعَ الأَصْلَ ؛ وأنَّ مَنْ لم يَعْرِفْ للغِنَى قَدْرَهُ ، فقدْ أَذِنَ بالفقْرِ ، وطَابَ نَفْسًا بالذُّلِّ[2] .

وزعمْتُ أنَّ كَسْبَ الحَلاَلِ مُضَمَّنٌ بالإنفَاقِ فى الحَلالِ ؛ وأنَّ الخبِيثَ يَنْزِعُ إلَى الخبيثِ ؛ وأنَّ الطَّيِّبَ يَدْعُو إلَي الطيِّبِ ، وأنَّ الإنفَاقَ فى الهَوَى حِجابٌ دونَ الحقُوقِ ؛ وأن الإنفاقَ فى الحقُوقِ حِجَازٌ دُونَ الهوَى . فعبتُم عَلىَّ هذَا القولَ . وقدْ قالَ مُعَاوِيةُ : لَم أَرَ تَبْذيرًا قطُّ إلاَّ وإلَى جَانبِهِ حقٌّ مضيَّعٌ . وقد قَالَ الحَسَنُ[3] : إذَا أردتُمْ أنْ تَعْرِفُوا مِنْ أينَ أصابَ مالَه ، فانْظُروا فى أىِّ شىءٍ يُنْفِقُه ؟ فإنَّ الخبيثَ يُنْفَقُ فى السَّرَفِ .

(شفقة منى وإشفاق)

وقلْتُ لكُم بالشَّفَقة منّى عليكُم ، وبِحُسْن النَّظَرِ لكم[4] ، وبِحفظِكُم لآبائِكم ، ولِمَا يَجبُ فى جوَاركُم ، وفى مُمالحتكُم ومُلاَبَستِكُم : أنتُم فى دَارِ الآفاتِ ، والجوائِحُ غَيْرُ مأْمُونَاتٍ . فإنْ أحاطَتْ بمَالِ أحدِكم آفةٌ لم يَرْجِعْ إلَى بَقِيَّةٍ ؛ فأحْرِزُوا النِّعْمةَ باختلاَفِ الأمكنَةِ ؛ فإنَّ البَلِيَّةَ لا تَجْرِى فِى الجَميعِ إلاَّ مَعَ مَوْتِ الجميعِ . وقَد قَالَ عُمَرُ رضى اللَّه عنهُ فى العَبْدِ والأمَةِ، وفى مِلْكِ الشَّاةِ والبَعِير ، وفى الشَّىْءِ الحقِيرِ اليَسِيرِ : فَرِّقُوا بَيْنَ المنَايَا[5] . وقالَ ابنُ سِيرِينَ لبعْضِ البَحْرِيين[6] : كيفَ تصنَعُونَ بأمْوالِكُم ؟ قَالَ : نُفَرِّقُها فِي السُّفُنِ ، فإنْ عَطِبَ بَعضٌ سلِم بَعْضٌ . ولولاَ أَنَّ السلاَمَةَ أَكْثَرُ لَما حَمَلْنا خَزَائِنَنَا فى البحْرِ . قالَ ابنُ سِيرِينَ : تَحْسَبُها خَرْقاءَ وهىَ صَنَاع[7] .

وقلتُ لكُم عِنْدَ إشْفَاقِى عليكُم : إنَّ للغِنَى سُكْرا ، وإنَّ للمَالِ لنَزْوةً . فمنْ لَم يحفَظِ الغِنَى مِنْ سُكْرِ الغِنَى فقدْ أضَاعهُ ، ومَنْ لَم يَرْتَبِط المالَ بخَوْفِ الفَقْرِ فقدْ أهْمَلهُ . فَعِبْتُمُونِى بذلكَ .

وقالَ زَيْدُ بنُ جَبَلَةَ : ليس أحدٌ أفقرَ من غَنِىّ أمِنَ الفَقْرَ . وسُكْرُ الغِنى أشدُّ من سُكرِ الخمرِ[8] .

وقُلْتُم : قَد لَزِمَ الحثُّ علَى الحقوقِ ، والتزهيدَ فى الفُضُولِ ، حتَّى صَار يَستعمِلُ ذلكَ فى أشعَارِه

---

(١) حباء الملوك : ما يكرم الرجل به غيره .

(٢) انظر العقد الفريد (٦/ ١٥٧ ، ١٥٨) .

(٣) المقصود : الحسن البصرى رحمه الله .

(٤) المقصود بحسن النظر : المحبة والشفقة عليهم .

(٥) المنايا : جمع منية ، والمقصود هنا ما يعرض له الموت ، أو التلف بأى نوع من أنواع الآفات .

(٦) المقصود بالبحريين : الملاحون . (٧) انظر العقد الفريد (٦/ ١٥٨) وهو مثل يضرب لمن تظن به الجهل وهو يقظ ذكى .

(٨) انظر العقد الفريد (٦/ ١٥٨) .

بعدَ رَسَائِله ، وفى خُطَبِهِ بعدَ سائرِ كلامِهِ . فمِنْ ذلكَ قولُه فى يَحْيَى بنِ خَالِدٍ :

عَدُوٌّ[1] تِلاَدِ المالِ فيما يَنُوبُهُ مَنُوعٌ إذَا ما منْعُهُ كانَ أحْزَمَا

ومِنْ ذلك قوله في محمَّدِ بنِ زِياد :

وخَليقَتان تُقَى وفَضْلُ تحرُّم وإهانةٌ فى حَقِّه للمَالِ

(بين العلم والمال)

وعِبْتُمُونى حينَ زَعمتُ أَنِّى أقدِّم المالَ على العِلْم ، لأَنَّ المالَ به يُغَاثُ[2] العَالِمُ[3] ، وبه تَقُومُ النُّفوس[4] قبلَ أنْ تُعْرفَ فَضِيلةُ[5] العِلْم ، وأنَّ الأصْل أحقُّ بالتفْضِيلِ منَ الفَرْعِ ، وأنِّى قلْتُ : وإنْ كنَّا نستبينُ الأمورَ بالنُّفُوسِ ، فإنَّا بالكِفَايةِ نَسْتَبِينُ ، وبالخَلَّة نَعْمَى[6] .

وقلتُم : وكيفَ تقولُ هذَا ؟ وقدْ قِيلَ لرئيسِ الحكَمَاءِ ، ومُقَدَّم الأدَبَاءِ[7] : العلماءُ أفضلُ أم الأغنِيَاءُ ؟ قالَ : بلِ العلماءُ . قيل : فمَا بَالُ العلماءِ يأتونَ أبوابَ الأغْنِيَاءِ ، أكثرَ ممَّا يأتى الأغنياءُ أبوابَ العلماءِ ؟ قالَ : لمعرفَةِ العلمَاءِ بِفَضْلِ الغِنى[8] ، ولجهْلِ الأغنِياءِ بفضْلِ[9] العلم .

فقلتَ : حَالُهما هِى القَاضِيةُ بينهُما . وكيفَ يَسْتَوِى شَىءٌ تُرَى حَاجةُ الجميعِ[10] إلَيْهِ ، وشَىءٌ يُغْنِى بعضُهُم فيهِ عنْ بَعْضٍ[11] ؟

(فضل الغنى على القوت)

وعِبْتُمُونِي حينَ قلتُ : إنَّ فَضْلَ الغِنَى علَى القُوتِ ، إنَّما هُو كَفَضْلِ الآلةِ تكُونُ في الدَّار[12] ، إنِ احْتِيجَ إلَيْهَا استُعمِلَتْ ، وإنِ استُغنِىَ عنَها كانتْ عُدَّةً. وقدْ قالَ الحُصَيْنُ[13] بنُ المُنْذِر[14] : وَدِدْتُ أنَّ لِي مِثْلَ أُحُد ذَهَبًا ، لا أنتفعُ منْهُ بشىءٍ . قيلَ : فمَا ينفعُكَ مِنْ ذلِك[15] ؟قالَ : لكَثْرةِ مَنْ يَحْسُدُنِى عليْهِ[16] . وقالَ أيضًا : عليكَ بطلَبِ الغِنَى ، فَلَو لمْ يكُنْ لكَ فيهِ إلاَّ أنَّهُ عِزٌّ في قلبكَ ، وذُلٌّ فى قلبِ غيرِكَ[17] ، لكانَ الحَظُّ فيه جَسِيما ، والنفعُ فيهِ عَظيمًا .

---

(١) فى العقد ونهاية الأرب (وهوب) وهو فى الحيوان (٣/ ٤٦٦ ، ٥/ ٦٠٤) .

(٢) فى العقد «يغاد» . (٣) فى العقد «العلم» . (٤) فى العقد «الناس» . (٥) فى العقد «فضل» .

(٦) فى العقد «وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس ، فإنا بالكفاية نستبين ، وبالخلة نعمى» .

(٧) فى العقد «ومقدم الأدباء» . (٨) فى العقد المال . (٩) فى العقد «بحق» . (١٠) فى العقد «العامة» .

(١١) انظر العقد الفريد (٦/ ١٥٨ ، ١٥٩) . (١٢) فى العقد «البيت» . (١٣) فى العقد «الحصين» .

(١٤) الحصين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشى ، أحد بنى رقاش ، فارس شاعر ، وكان معه راية على يوم صفين دفعها إليه وهو ابن تسع عشرة سنة وفيه يقول علىّ : لمن راية سوداء يخفق ظلها إذا قيل قدمها حصين تقدما وكان حصين من كبار التابعين ، مات على رأس المائة . تهذيب التهذيب (٢/ ٣٩٥) .

(١٥) فى العقد «فما كنت تصنع به» . (١٦) بعده فى العقد «لأن المال مخدوم وقد قال بعض الحكماء . . .» .

(١٧) فى العقد عدوك .

ولسنَا ندَعُ سِيرةَ الأنبيَاءِ، وتعليمَ الخُلفَاءِ، وتأديبَ الحكماءِ، لأصحابِ الأهْوَاءِ[1]: كَانَ رسولُ الله ﷺ يأْمُرُ الأغنياءَ باتِّخاذِ الغَنَم، والفُقَراءَ باتخاذ الدَّجاجِ. وقالَ: دِرْهَمُك لمعاشِكَ، ودِينُك لِمَعَادِكَ.

فَقَسَّمُوا الأُمُورَ كلَّهَا علَى الدِّين والدنْيَا. ثُم جَعلُوا أحدَ قِسْمَيِ الجميعِ الدِّرْهَمَ. وقالَ أبو بكْرٍ الصِّدّيقُ، رضى اللَّه عنه: إنِّى لأبْغِضُ أَهلَ البيتِ يُنْفقونَ رِزْقَ الأيَّام فى اليوْمِ. وكانوا يُبْغِضُونَ أهلَ البيتِ اللَّحِمين[2].

وكانَ هِشامٌ يقولُ: ضعِ الدِّرهَم على الدِّرهَم يكون مالًا. ونَهَى أبُو الأسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ، وكانَ حَكِيمًا أَديبًا، وَداهِيًا أَرِيبًا[3]، عنْ جُودِكُمْ هذا المولَّدِ، وعن كَرَمِكُمْ هذا المُسْتَحْدَثِ.

فقالَ لابنهِ: إذا بَسَطَ الله لكَ الرِّزْقَ فابسُطْ، وإذَا قَبَضَ فاقْبِضْ. ولا تُجَاوِدِ الله، فإنَ الله أجْوَدُ منكَ. وقالَ: دِرْهمٌ من حِلٍّ يَخْرُجُ فى حَقٍّ خيرٌ مِن عشَرة آلافٍ قَبْضا.

وتلقَّطَ عُرُنْدًا مِنْ بَزِيم[4]، فقالَ: تُضِيعُونَ مِثْلَ هذَا، وهو قُوتُ امْرِئٍ مُسْلم يومًا إلَى اللَّيل! وتلقَّطَ أبُو الدَّرْدَاءِ حبَّاتِ حِنْطَةٍ، فَنَهاهُ بَعْضُ المُسْرفِينَ. فقالَ: لِيَهُنِ ابنُ العَبْسِيّةِ! إنَّ مِرْفَقَةَ المَرْءِ رِفْقُهُ فى مَعِيشتِه.

فَلَسْتُمْ علىَّ تَرُدُّونَ، ولاَ رَأْيِى تُفَنِّدُون[5]. فَقدِّموا النظرَ قبلَ العَزْمِ. وتذكّروا ما عليكمْ، قبلَ أنْ تذكُروا ما لكُم. والسَّلاَم.

(مع أهل مرو وبخلهم)

نَبدأُ بأهْل خُراسانَ، لإكثَارِ النَّاسِ فى أهْلِ خُرَاسَانَ. ونَخُصُّ بذلك أهلَ مَرْو[6]، بقَدْرِ ما خُصُّوا بهِ.

قالَ أصحابُنَا: يقولُ المَرْوَزِىُّ للزائِرِ إذَا أتاهُ، وللجَلِيس إذَا طالَ جُلُوسُهُ: تغدَّيتَ اليومَ؟ فإنْ قالَ: نعمْ، قالَ: لولاَ أنَّك تغدَّيتَ لغدَّيتُكَ بِغَدَاءٍ طيِّبٍ. وإنْ قالَ: لاَ، قالَ: لو كُنْتَ تَغَدَّيتَ لَسقيتُكَ خمسةَ أقْدَاحٍ. فلاَ يَصِيرُ فى يدهِ علَى الوَجْهَين قليلٌ ولا كثيرٌ.

وكنتُ فى مَنعزِلِ ابنِ أبى كَرِيمةَ، وأصلُه منْ مَرْوَ. فرآنِى أتوضَّأُ مِنْ كُوزِ خَزفٍ، فقالَ: سبحانَ اللَّه، تتوضأُ بالعَذْبِ والبئرُ لكَ مُعْرِضَة! قلتُ: ليس بِعَذْبٍ، إنَّما هُو مِنْ ماءِ البِئْر. قالَ: فتُفْسِدُ

---

(١) فى العقد اللهو.
(٢) اللَّحِمين: هم الذين يكثرون من أكل اللحم وفى هذا إسراف وتبذير.
(٣) داهِيًا أرِيبًا: حازمًا بصيرًا بالأمور.
(٤) البزيم: ما يبقى من المرق أسفل الإناء. والعرند: الشديد الغليظ، والمقصود أنه استخرج العصب الغليظ الشديد من بقايا المرق
(٥) تُفَنِّدُون: أى تخطئون رأيى وتبطلونه، وفى التنزيل: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٤٩].
(٦) مرو: بلد من إقليم خراسان.

علينا كُوزَنا بالمُلُوحةِ ! فَلَم أدْرِ كيفَ أتخلَّصُ منهُ ؟

وحدَّثنى عَمْرُو بن نِهْيَوى ، قالَ : تَغَدَّيتُ يومًا عندَ الكِنْدِىّ . فدخلَ عليهِ رجلٌ كانَ لهُ جَارًا ، وكانَ لِى صديقًا . فَلَمْ يَعْرِضْ عليهِ الطعامَ ونحنُ نأكلُ . وكانَ أبخلَ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ . قال : فاسْتَحْييتُ منهُ ، فقلتُ : سبحانَ اللَّه ، لو دَنَوْتَ فأصَبتَ معنا ممَّا نأكلُ ! قالَ : قدْ واللهِ فعلتُ . فقالَ الكِنْدِى : ما بَعْدَ اللَّه شىءٌ ! قالَ عمرُو : فَكَتَفهُ واللَّهِ كَتْفًا لا يَستطيعُ معهُ قَبْضًا ولا بَسْطًا ، وتركَه . ولو مَدَّ يَده لكانَ كافرًا ، أو لكانَ قدْ جَعَلَ مع اللَّه - جلَّ ذِكْرُه - شَيئًا[1] !

وليسَ هذَا الحديثُ لأهلِ مَرْوَ ، ولكنّه من شكْلِ الحديثِ الأوَّلِ .

وقالَ ثُمَامَةُ[2] : لم أَرَ الديكَ فى بلْدةٍ قطُّ إلاَّ وهو لاقِطٌ ، يأخذُ الحبَّة بمنقارِه ، ثُم يَلْفظُهَا قُدَّامَ الدَّجاجَةِ ، إلاَّ دِيَكَةَ مَرْو ، فإنّي رأيتُ دِيكةَ مَرْوَ تَسْلُبُ الدَّجاجَ ما فِي مناقيرِهَا من الحَبِّ!

قالَ : فعلمتُ أنَّ بُخْلهُم شىءٌ فى طَبْع البلاد ، وفى جَوَاهر الماءِ . فمِنْ ثَمَّ عمَّ جميعَ حيَوانِهم .

(ماذَنْبُنَا ؟)

فحدّثتُ بهذَا الحديثِ أحمدَ بنَ رَشِيدٍ ، فقالَ : كنتُ عندَ شَيْخٍ مِنْ أهلِ مَرْوَ ، وصَبيٌّ له صغيرٌ يلعبُ بين يَدَيْه ، فقلتُ له إمَّا عَابِثًا وإمَّا مُمتَحِنا : أطْعِمْنى مِنْ خُبزِكُم ، قالَ : لاَ تُريدُه ، هُو مُرٌّ ! فقلتُ : فأسْقِنى منْ مائِكُم ، قالَ : لا تريدُه ، هُو مالحٌ ! قلتُ : هاتِ من كذَا وكذَا ، قالَ : لا تُرِيدُه ، هو كذا وكذا ! إلَى أنْ عَدَدْتُ أصْنَافًا كثيرةً . كلُّ ذَلكَ يَمْنَعُنِيه ويُبَغِّضُه إلىَّ ! فضَحِكَ أبوهُ ، وقالَ : ما ذنبُنا ؟ هَذَا مِنْ عِلْمِه ما تَسْمَعُ ! يَعْنى أنَّ البُخْل طَبْعٌ فيهِم ، وفى أعْراقِهم وطِينَتِهِمْ .

(صور من البخل)

وزَعَمَ أصحابُنا أنَّ خُرَاسانيّةً ترافَقُوا فى منزلٍ ، وصَبَرُوا عَنِ الارتفاقِ[3] بالمصباحِ ، ما أمكنَ الصبرُ ، ثم إنَّهُم تناهَدُوا وتخَارجُوا . وَأبَى واحدٌ منهمُ أنْ يُعِينَهُم ، وأنْ يَدْخلَ فى الغُرْم معهُم . فكانُوا إذَا جاءَ المصباحُ شَدُّوا عَيْنَيهِ بمنديلٍ ! ولا يَزَالُ ولا يزالُون كذلكَ إلَى أن يَنَامُوا ، ويُطفئُوا المصْباحَ . فإذَا أطْفَئُوا أطْلَقُوا عينيهِ !

ورأيتُ أنَا حمَّارةً[4] منهُم ، زُهَاءَ خَمْسينَ رجُلًا ، يتغدَّوْن علَى مَبَاقِلَ بحَضْرَةِ قرْية الأعرابِ ، فى طريقِ الكُوفَةِ ، وهُم حُجَّاجٌ . فلمْ أَر مِنْ جَمِيعِ الخَمسين رَجُلين يَأْكُلان مَعًا ، وهُم فى ذلِكَ متقارِبُونَ ، يُحدِّثُ بعضُهمْ بعضًا . وهذَا الَّذِى رأيتُهُ منْهُم مِنْ غَرِيبِ ما يتَّفِقُ لِلنَّاسِ .

---

(١) انظر العقد الفريد (٦/ ١٤٢) .

(٢) ثُمامَة بن أشرس النميرى ، أبو معن : من كبار المعتزلة ، وأحد الفصحاء البلغاء المقدّمين . عدّه المقريزى من رؤساء الفرق الهالكة ، وأتباعه يُسمُّون «الثمامية» نسبة إليه . الأعلام (٢/ ١٠٠ ، ١٠١) .

(٣) الارتفاق : الانتفاع به .

(٤) الحمّارة : أصحاب الحمير فى السفر .

حَدَّثنى مُوَيْس بنُ عِمْرانَ[1] ، قالَ : قالَ رجُلٌ منهُمْ لصاحِبِهِ ، وكَانَا إمَّا مُتَزامِلَيْنِ ، وإما مترافِقَيْن : لِمَ لا نَتَطاعمُ ، فإنَّ يدَ اللَّه معَ الجماعةِ ؟ وفى الاجتماعِ البركَةُ . وما زالُوا يقولوُنَ : طَعامُ الاثْنَيْن يكْفِى الثلاثةَ ، وطَعَامُ الثلاثةِ يكفِى الأربَعةَ . فقالَ لهُ صاحبُه : لولاَ أنّى أعلمُ أنّكَ آكَلُ مِنِّى لأدخلْتُ لكَ هذَا الكَلامَ فى بابِ النَّصِيحَةِ .

فلَما كانَ الغَدُ وأعادَ عليْهِ القولَ ، قالَ لهُ : يا عَبْدَ اللَّهِ ، مَعكَ رَغيفٌ ومَعِى رغيفٌ . ولولاَ أنَّكَ تُرِيدُ أكثرَ ، ما كانَ حِرْصُكَ علَى مُؤَاكَلتِى ! تُرِيدُ الحديثَ والمؤَانسةَ ؟ اجْعَلِ الطَّبقَ وَاحِدًا ، ويكونُ رغيفُ كلٍّ مِنَّا قُدَّامَ صاحبِه . ومَا أشكُّ أنَّك إذَا أكَلْتَ رغيفَك ونصفَ رَغيفِى ستجدُه مباركًا ! إنَّما كانَ يَنبَغى أنْ أكُونَ أجدُهُ أنَا لا أنتَ .

(فضل وفضل)

وقالَ خَاقَانُ بن صُبَيْح : دَخلتُ علَى رجُلٍ مِنْ أهْلِ خُرَاسَانَ ليلًا ، وإذَا هُوَ قدْ أتانَا بمِسْرَجةٍ فيهَا فَتِيلةٌ فى غايةِ الدِّقَّةِ ، وإذَا هُو قَد ألْقَى فى دُهْنِ المِسْرَجَة شيئًا من مِلْحٍ ، وقدْ علَّقَ علَى عَمُود المَنَارةِ[2] عُودًا بخَيْطٍ ، وقدْ حَزَّ فيهِ ، حتَّى صَارَ فيه مكانٌ للرِّباطِ . فكانَ المصباحُ إذَا كَادَ ينطفئُ أشْخَصَ رأسَ الفَتِيلةِ بذلكَ . قالَ : فقلتُ له : ما بَالُ العُودِ مَرْبوطًا ؟ قالَ : هذَا عودٌ قدْ تَشَرَّبَ الدُّهنَ . فإنْ ضَاعَ ولم يُحْفظْ ، احتجنَا إلى وَاحِدٍ عَطْشانَ . فإذَا كانَ هذَا دأبَنا ودَأبَهُ ، ضاعَ مِنْ دُهْنِنا فى الشَّهرِ بقدرِ كفايةِ لَيْلةٍ[3] .

قالَ : فبِتْنا أنَا أتعجَّبُ فى نَفْسِى[4] ، وأسألُ اللَّه - جلَّ ذِكْرُهُ - العافيَة والسَّتْرَ[5] ، إذْ دَخلَ شيخٌ من أهْلِ مَرْوَ ، فنَظَرَ إلى العُودِ ، فقالَ : يا أبَا فُلاَن ، فَرَرْتَ مِنْ شىءٍ ووقَعْتَ فى شَبِيهِ[6] به . أما تعلَمُ أنَّ الرِّيحَ والشَّمسَ تأخذَانِ مِنْ سائِرِ الأشياءِ ؟ أوَ لَيسَ قد كانَ البارِحَةَ[7] عندَ إطفاءِ السِّراجِ أرْوَى ، وهُو عندَ إسْراجِكَ الليلةَ أعطشُ ؟ قدْ كنتُ أنَا جاهلًا مِثْلَكَ[8] ، حتَّى وَفَّقَنِى اللَّه إلَى ما هُو أرْشَدُ . ارْبِطْ - عافَاكَ اللَّه ! - بَدَلَ العُودِ إبرةً[9] أو مِسَلَّةً صغيرةً . وعلى أنَّ العُودَ والخلالَ والقَصَبةَ ربَّما تعلَّقتْ بها الشَّعرةُ مِنْ قُطْنِ الفَتيلَةِ ، إذَا سوَّيناهَا بهَا ، فتشخَصُ معهَا . وربَّما كانَ ذلكَ سَبَبا لانطِفاءِ السِّراجِ . والحديدُ أملَسُ . وهو معَ ذلِكَ غيرُ نَشَّافٍ .

قالَ خاقانُ : ففِى تلكَ الليلةِ عَرَفْتُ فَضْلَ أهلِ خراسانَ علَى سائِرِ الناسِ ، وفَضْلَ أهلِ مرو علَى سائِرِ أهلِ خراسانَ[10] !

---

(١) مويس بن عمران : معاصر للجاحظ ، كان من بخلاء الناس ، ومن أصحاب النظام ، سئل عنه أبو شعيب القلال فزعم أنه لم ير قط أشح منه على الطعام . قيل : كيف ؟ قال : يدلك على ذلك أنه يصنعه صنعة ، ويهيئه تهيئة من لا يريد أن يمس . انظر الحيوان (٥/ ٤٦٨) .

(٢) المنارة : المقصود هنا ما توضع عليه المسرجة وتثبت على العمود .

(٣) انظر العقد الفريد (٦/ ١٣٦) .

(٤) فى العقد الفريد بدون «فى نفسى» .

(٥) فى العقد الفريد بدون «والستر» .

(٦) فى العقد «هو شر منه» .

(٧) بعده فى العقد «هذا العود» .

(٨) بعده فى العقد «زمانًا» .

(٩) فى العقد «إبرة كبيرة» .

(١٠) انظر العقد الفريد (٦/ ١٣٦) .

قالَ مُثَنَّى بنُ بَشِيرٍ : دَخلَ أَبو عَبدِ اللَّه المَرْوَزِى[1] علَى شيخ مْن أهلِ خُراسَانَ ، وإذَا هُو قدْ اسْتَصْبَحَ فِى مِسْرَجةِ خَزَفٍ مِنْ هذِهِ الخَزَفِيّة الخُضْرِ . فقالَ لهُ الشيخُ : لاَ يجىءُ والله مِنْكَ أمرٌ صَالِحٌ أَبَدًا ! عَاتبتُكَ فِي مَسَارِجِ الحِجارَةِ ، فأَعْتَبْتَنى بالخَزَفِ . أوَ مَا علِمْتَ أنَّ الخَزَفَ والحجارةَ يَحْسُوانِ الدُّهنَ حَسْوًا ؟ قالَ : جُعِلتُ فِدَاكَ ! دَفعتُها إلَى صديقٍ لِى دَهَّانٍ ، فألقاهَا فى المِصْفَاةِ شَهرًا ، حتَّى رَوِيتْ مِنَ الدُّهن رَيًّا لا تحتاجُ معهُ أبدًا إلى شىءٍ . قالَ : ليسَ هذَا أُرِيدُ ، هذَا دواؤُه يَسيرٌ . وقَدْ وَقَعْتَ عليهِ . ولَكنْ ما علمتَ أنَّ مَوْضِعَ النَّارِ من المِسْرجَةِ فى طَرَفِ الفَتِيلةِ لاَ ينفكُّ منْ إحراقِ النَّار ، وتَجْفِيفِه وتَنْشِيفِ مَا فِيه ؟ ومتَى ابتلَّ بالدُّهْنِ وتسقَّاهُ ، عَادَتِ النارُ عَلَيهِ فأكَلتْهُ . هذَا دأْبُهُمَا . فلَو قِسْتَ ما يَشْربُ ذلكَ المكانُ منَ الدُّهنِ ، بمَا يستمِدُّه طرفُ الفتِيلَةِ منهُ ، لَعلِمتَ أنَّ ذلكَ أكْثَرُهُ .

وبَعْدَ هذَا ، فإنَّ ذلكَ الموضعَ مِنَ الفَتِيلة والمِسْرَجة لاَ يزالُ سائِلًا جاريًا. ويقالُ : إنَّكَ متَى وضعتَ مِسْرَجَةً فيهَا مِصباحٌ ، وأُخْرَى لاَ مصباحَ فيهَا ، لم تلبثْ إلاَّ ليلةً أو لَيْلَتَيْن حتىَّ ترَى السُّفْلَى ملآنةً دُهنًا . واعتَبِرْ أيضًا ذلكَ بالملحِ الَّذِى يُوضَعُ تحتَ المِسْرجَةِ ، والنُّخَالةُ التِى تُوضَعُ هناكَ ، لتَسوَيتِها وتَصْوِيبَها ، كَيفَ تَجِدهُما يَنْعصِران دُهْنًا . وهَذَا كُلُّه خُسْرانٌ وغَبْنٌ ، لاَ يتهاونُ بهِ إلاَّ أصحابُ الفسَادِ . علَى أنَّ المُفْسِدين إنَّما يُطعِمُونَ الناسَ ويُسقونَ الناسَ ، وهمْ علَى حالٍ يستخِلفُونَ شيئًا ، وإنْ كانَ رَوْثًا[2] . وأنتَ إنَّما تُطعِمُ النارَ وتُسْقِى النارَ . ومَنْ أطعمَ النارَ جَعَله اللَّه يومَ القيامة طعامًا للنارِ !

قالَ الشيخُ : فكيفَ أصْنَعُ ؟ جُعِلتُ فِداكَ ! قالَ : تتَّخذُ قِنْدِيلًا . فإنَّ الزُّجاجَ أحْفظُ مِنْ غيرِه . والزُّجاجُ لا يعرفُ الرَّشْح ولا النَّشْفَ ، ولا يَقْبَلُ الأوساخَ التِى لا تَزُولُ إلاَّ بالدَّلْكِ الشَّديدِ ، أو بإحراقِ النارِ . وأيُّهما كانَ ، فإنَّه يُعِيدُ المِسْرَجةَ إلَى العَطَشِ الأولِ . والزُّجاجُ أبْقَى علَى الماءِ والتُّرابِ منَ الذهبِ الإبْرِيزِ . وهُو معَ ذلكَ مَصْنوعٌ ، والذَّهبُ مخلوقٌ .، فإنْ فضَّلتَ الذهبَ بالصَّلابةِ ، فضَّلتَ الزجاجَ بالصَّفاءِ .

والزجاجُ مُجَلٌ[3] ، والذَّهبُ سَتَّار . ولأَنَّ الفتيلةَ إنَّما تكونُ فى وسَطِهِ ، فلا تَحْمِىَ جوانِبهُ بِوَهَجِ المِصباح ، كَما تَحْمِىَ بموضعِ النارِ منَ المِسْرَجةِ . وإذَا وقعَ شُعاعُ النَّارِ عَلى جَوْهرِ الزُّجاجِ صارَ المِصْباحُ والقِنْديلُ مصْباحًا واحدًا ، وَردَّ الضياءَ كلُّ واحدٍ منهُما علَى صاحِبه .

واعْتَبِرْ ذلك بالشُّعاعِ الذِى يَسْقُطُ علَى وَجْه المِرآةِ ، أو عَلى وَجْهِ الماءِ، أو علَى الزُّجاجةِ ، ثم انْظُرْ كيفَ يتضاعفُ نُورُه . وإنْ كانَ سُقُوطُه علَى عينِ إنسانٍ أعْشاهُ، وربَّما أعماهُ .

---

(١) إبراهيم بن أحمد المروزى ، أبو إسحاق : فقيه انتهت إليه رياسة الشافعية بالعراق بعد ابن سريج . مولده بمرو الشاهجان وأقام ببغداد أكثر أيامه . وتوفى بمصر . له تصانيف منها شرح مختصر الزنى . (الأعلام ١/ ٢٨) .

(٢) الروث : رجيع ذى الحافر ، والجمع أرواث . وقد أطلقه هنا على رجيع الآدمى مجازًا .

(٣) مجل : أى شفاف كاشف .

وقال جلَّ ذكرُه : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[1] .

والزيتُ فى الدجاجَةِ نورٌ علَى نُورٍ ، وضوءٌ علَى ضَوْءٍ مُضَاعَفٍ . هَذَا مَع فَضْل حُسْنِ القِنْديل على حُسْنِ مَسَارِج الحِجارةِ والخَزَفِ .

وأبُو عَبْدِ اللَّهِ هذَا كانَ منْ أطْيَبِ الخَلْقِ وأمْلَحِهم بُخْلًا ، وأشدّهم أدَبًا . دخلَ علَى ذِى اليَمِينَيْنِ طاهرِ بنِ الحسينِ[2] ، وقدْ كانَ يَعْرِفُه بخُراسانَ بسببِ الكلامِ . فقالَ لهُ : مُنْذُ كَمْ أنتَ مُقِيمٌ بالعراقِ يا أبَا عبد اللَّه ؟ فقالَ : أنَا بالعراقِ مُنْذُ عشرينَ سنةً . وأنَا أصُوم الدهرَ مُنْذُ أربعينَ سنةً . قالَ : فضحِكَ طاهرٌ وقالَ : سألناكَ يا أبَا عبد اللَّه عنْ مسألةٍ ، وأجبتنَا عنْ مسألتيْنِ !

(أين جزاء الإحسان ؟)

ومِنْ أعاجِيبِ أهْلِ مَرْوَ ما سَمِعْناهُ منْ مشايخنَا علَى وَجْهِ الدَّهرِ . وذلكَ أنَّ رجلًا منْ أهْلِ مَرْوَ كانَ لا يزال يَحُجُّ وَيتَّجِرُ ، وَينزلُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أهْلِ العِراقِ ، فيكرِمُهُ ويَكْفِيهِ مُؤنَتَهُ . ثُم كَانَ كثيرًا ما يقولُ لذلكَ العِراقيِّ : ليتَ أنِّى قدْ رأيتُكَ بِمَرْوَ ، حتَّى أُكَافِئَكَ لِقَديمِ إحسَانِكَ ، وما تُجدِّدُ لي مِنَ البِرِّ في كُلِّ قَدْمَةٍ . فأمَّا هَا هُنَا فقدْ أغْنَاكَ اللَّه عَنِّى .

قَالَ : فَعرضَتْ لذلِكَ العِراقيِّ بعدَ دَهْرٍ طَوِيلٍ حَاجةٌ في تلكَ النَّاحيةِ . فكَانَ مِمَّا هوَّنَ عليهِ مُكَابَدةَ السَّفرِ ، وَوَحْشَةَ الاغْترابِ ، مَكانُ المَرْوَزِىِّ هناكَ . فلمَّا قَدِمَ مَضَى نحْوَهُ فى ثِيَابِ سَفَرِه ، وفي عِمَامتهِ وَقَلَنْسُوَتِهِ وكِسائِه ، ليَحُطَّ رَحْلَهُ عندَه ، كَما يَصْنَعُ الرجلُ بِثِقَتِهِ ، ومَوْضع أُنْسِه .

فلمَّا وجَدهُ قاعدًا فى أصحابِهِ أَكَبَّ عليهِ وعانَقَهُ . فلمْ يَرَهُ أثْبتَه ، ولا سأَلَ بِهِ سُؤالَ مَنْ رآهُ قَطُّ . قَالَ العِراقِيُّ فى نفسِهِ : لَعَلَّ إنكارَهُ إيَّايَ لمكَانِ القِناعِ . فَرمَى بِقِناعِهِ وابْتدأَ مَسْأَلتَهُ . فكانَ لهُ أنْكَرَ . فقالَ : لعلَّهُ أنْ يكُونَ إنَّما أُتِىَ مِنْ قِبَلِ العمامَةِ ، فنزعَهَا . ثُم انتَسَبَ وجدَّدَ مسألَتَهُ ، فوجدهُ أشدَّ ما كانَ إنْكارًا . قالَ : فَلعَله إنَّما أُتِىَ من قِبَلِ القَلَنْسُوةِ .

وعَلِم المَرْوَزِىُّ أَنَّه لم يَبْقَ شيءٌ يتعلَّقُ بِهِ المُتغافِلُ والمُتجاهِلُ . قالَ : لو خرجتَ منْ جلْدِكَ لَمْ أعْرِفْكَ !

وزعَمُوا أنَّهم رُبَّمَا ترافَقُوا وتَزَاملُوا ، فتناهَدُوا وتلازَقُوا[3] فى شراءِ اللَّحمِ . وإذَا اشْتَرَوا اللحم

---

(١) [النور : ٣٥] والمشكاة : الكوة غير النافذة : ودرى : مضيء يتلألأ . والمقصود بلا شرقية ولاغربية ، أى : تقع الشمس عليها طول النهار كالتى فى الصحراء ، فيكون الثمر أنضج والزيت أصفى .

(٢) طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعى ، أبو الطيب ، وأبو طلحة : من كبار الوزراء والقواد، أدبًا وحكمة وشجاعة . ولد فى يوشنج وسكن بغداد . راجع ترجمته بالتفصيل فى الأعلام (٣/ ٢٢١) .

(٣) تلازقوا : كانوا معًا . يقال تلازق الشيئان : لزق أحدهم بالآخر .

قَسَموهُ قبلَ الطَّبْخ ، وأخَذَ كلُّ إنسانٍ منهمُ نصيبَهُ ، فشكَّهُ بخُوصَةٍ أو بخَيْط ، ثم أرسَلَهُ فى خَلِّ القِدْرِ والتَّوابِل . فإذَا طَبَخُوا تناولَ كلُّ إنسانٍ خَيْطَهُ وقدْ علَّمهُ بعلامةٍ . ثُم اقْتَسَمُوا المَرَقَ . ثُمَّ لا يزالُ أَحَدُهُم يَسُلُّ منَ الخيطِ القِطْعةَ بعدَ القطعةِ ، حتَّى يَبْقَى الحبلُ لا شىءَ فيه . ثم يجمعونَ خيوطَهُم . فَإنْ أعَادُوا المُلازَقَةَ أعَادُوا تلكَ الخيوطَ ، لأنَّها قدْ تشرَّبتِ الدَّسَمَ ورَوِيَتْ .

وليسَ تناهُدُهُم منْ طَرِيقِ الرَّغْبةِ فى المُشَاركَةِ ، ولكِنْ لأنَّ بضاعةَ كلِّ واحدٍ منهُم لا تَبْلُغُ مقدارَ الَّذِى يَحْتَمِلُ أنْ يُطْبخَ وحْدَهُ ، ولأنَّ المُؤْنةَ تَخِفُّ أيضًا فى الحَطَبِ والخَلِّ والثَّوم والتَّوَابِلِ . ولأنَّ القدْرَ الواحدةَ أمْكَنُ منَ أنْ يَقْدِرَ كلُّ واحدٍ منهُم على قِدْرٍ . فإنَّما يختارونَ السِّكْبَاجَ[1] ، لأنَّه أبْقَى علَى الأيامِ ، وأبْعَدُ منَ الفَسادِ[2] .

(موقفان عجيبان)

حدَّثَنى أبُو إسْحاقَ إبراهيمُ بنُ سَيَّارٍ النَّظَّامُ[3] ، قالَ : قُلتُ مَرَّةً لجارٍ كانَ لِى منْ أهْلِ خُراسانَ : أَعِرْنِى مِقْلاكُم ، فإنِّى أحْتَاجُ إليهِ . قالَ : قدْ كانَ لنَا مِقْلًى ولكنَّه سُرِقَ .

فاسْتَعرتُ مِنْ جارٍ لِي آخرَ . فلمْ يلبثِ الخُرَاسَانىُّ أنْ سَمِعَ نَشِيشَ اللَّحمِ فى المِقْلَى ، وشَمَّ الطَّباهَجَ . فقالَ لِي كالمُغْضَبِ : ما فى الأرضِ أعْجبُ منكَ : لو كُنتَ خبَّرتنِى أنَّكَ تريدهُ لِلَحْم أو لشَحْمٍ لَوجدتَنى أسرعَ ! إنَّما خَشِيتُكَ تريدُه للباقِلِىّ[4] . وحَديدُ المِقْلَى يحترقُ إذا كانَ الذِّي يُقْلَى فيهِ ليسَ بدَسِمٍ. وكيفَ لا أُعِيرُكَ إذَا أردتَ الطَّباهَجَ ، والمِقْلَى بعدَ الردِّ مِنَ الطَّباهَج أحْسَنُ حالًا منهُ وهُو فى البيتِ !

(لماذا طلق امرأته ؟)

وقالَ أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ سَيَّارٍ النَّظَّامُ : دعانَا جارٌ لنَا ، فأطعَمَنا تَمْرًا وسَمْنا سِلاَءً ، ونحنُ علَى خُوانٍ ليسَ عليهِ إلاَّ ما ذكرتُ ، والخراسانىُّ معنَا يأكلُ . فرأيتُه يُقْطِرُ السَّمنَ علَى الخُوانِ ، حتَّى أكْثَرَ منْ ذلكَ . فقلتُ لرجلٍ إلَى جَنْبى : مَا لأَبِى فلانٍ يُضيعُ سَمْنَ القومِ ، ويُسِيءُ المؤَاكَلةَ ، ويَغْرِفُ فَوْقَ الحَقِّ ؟ قالَ : وما عرفتَ عِلَّتَهُ ؟ قلتُ : لاَ واللَّهِ ! قالَ : الخُوَانُ خُوانُه ، فهوَ يُريدُ أنْ يُدَسِّمهُ ، ليكونَ كالدِّبغِ لهُ . ولقدْ طَلَّقَ امرأتَهُ، وهِىَ أمُّ أولادِهِ ، لأنَّه رآها غَسَلتْ خُوانًا لهُ بماءٍ حَارٍّ. فقالَ لهَا : هلَّا مَسَحْتِه !

---

(١) السِّكْبَاج : طعام يعمل من الخل واللحم مع توابل ، والقطعة منه سكباجة . (٢) انظر نثر الدار (٣/ ٢٨٦) .

(٣) إبراهيم بن سيار بن هانئ البصرى ، أبو إسحاق النظام : من أئمة المعتزلة تبحر فى علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين ، وانفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت «النظامية» نسبة إليه . الأعلام (١/ ٤٣) .

(٤) الباقلاء : نبات عشبى من الفصيلة القرنية وهو الفول .

وقالَ أبو نُوَاسٍ : كانَ معنَا فى السفينةِ ونحنُ نُرِيدُ بَغدادَ رجلٌ منْ أهلِ خُراسانَ . وكانَ منْ عقلائِهم وفُهَمائِهم . وكانَ يأكلُ وحدَهُ ، فقلتُ لهُ : لِمَ تأكلُ وحدَك ؟ قالَ : ليسَ علىَّ فى هذَا المَوْضعِ[1] مسألةٌ . إنَّما المسألةُ علَى مَنْ أكلَ معَ الجماعَةِ ؛ لأنَّ ذلِكَ هُوَ التكلُّفُ . وأكْلِى وحْدِى هُو الأصلُ. وأكْلِى مَعَ غيرِى[2] زيادةٌ فى[3] الأصْلِ[4] .

(العجلة من عمل الشيطان)

وحدّثنى إبراهيمُ بنُ السِّنْدىِّ ، قالَ : كانَ علَى رَبْعِ الشاذَرْوانِ شَيْخٌ لنَا مِنْ أهلِ خُراسانَ . وكانَ مُصَحَّحًا ، بعيدًا مِنَ الفسَادِ ، ومنَ الرِّشَا[5] ، وَمِنَ الحُكْمِ بالهَوَى. وكانَ حَفِيًّا جدًّا .

وكذلِكَ كانَ فى إمساكِهِ ، وفى بُخْلِه وتدْنِيقِه[6] فى نفقاتِه . وكانَ لا يأكُلُ إلاَّ ما لَا بُدَّ منهُ ، ولاَ يَشْرَبُ إلاَّ ما لاَ بدَّ منهُ .

غير أنَّه كان فى غَداةِ كلِّ جُمُعةٍ يحمِلُ معهُ مِنديلًا فيه جَرْدَقتانِ[7] ، وقِطَعُ لَحْمٍ سِكْباجٍ مُبَرَّدٍ ، وقِطَعُ جُبْنٍ ، وزَيْتوناتٌ ، وصُرَّةٌ فيها مِلْحٌ ، وأخرى فيها أُشْنَانٌ[8] ، وَأَرْبَعُ بَيْضاتٍ ، ليسَ منها بدٌّ . ومعهُ خِلالٌ .

ويَمْضِى وَحْدَهُ ، حتَّى يَدْخلَ بَعْضَ بساتينِ الكَرْخِ[9] . ويطلبُ مَوْضِعًا تحتَ شجرةٍ ، وسْطَ خُضْرةٍ ، وعلَى ماءٍ جارٍ . فَإذَا وَجَدَ ذلكَ جَلَسَ ، وبَسَطَ بين يديْه المِنْديلَ ، وأكلَ منْ هذَا مرّةً ، ومن هَذا مَرّةً . فإنْ وَجَد قَيِّمَ ذلكَ البُسْتانِ رَمَى إليهِ بدرهمٍ ، ثُم قالَ : اشْتَرِ لِى بهذَا ، أو أعطِنى بهذَا رُطَبًا ، إنْ كانَ فى زَمَانِ الرُّطَبِ، أوْ عِنَبًا ، إنْ كانَ فى زمانِ العنبِ . ويقولُ لهُ : إيَّاكَ إيّاكَ أنْ تُحَابِيَنى ، ولكنْ تَجَوَّدْ لى ، فإنّكَ إنْ فعلتَ لم آكُلْه ، ولم أَعُدْ إليكَ . واحْذَر الغَبْنَ ، فإنَّ المغبونَ لا محمودٌ ولا مأْجُورٌ .

فإنْ أتاهُ به أكلَ كلَّ شىءٍ معهُ ، وكلَّ شىءٍ أُتىَ بهِ . ثم تخلَّل وغَسلَ يَدَيْه. ثم يَمْشِى مِقْدَارَ مائةِ خُطْوةٍ . ثم يضعُ جنبهُ ، فينامُ إلَى وقتِ الجُمُعةِ . ثم يَنْتَبِهُ فيغتسلُ ، ويَمْضِى إلَى المسجِدِ . هذَا كانَ دَأْبَه كلَّ جمعةٍ .

قالَ إبراهيمُ : فَبَيْنَا هُو يومًا منْ أيّامِه يأكلُ فى بعضِ المواضِع ، إذْ مرَّ بهِ رجلٌ فسلَّم عليهِ ، فردَّ السَّلاَمَ . ثُم قالَ : هَلُمَّ – عافاكَ اللَّه ! فلمَّا نظَر إلَى الرجلِ قدْ انْثَنَى راجعًا ، يريدُ أنْ يَطْفِرَ[10]

---

(١) فى العقد بدون «الموضع» .
(٢) فى العقد «الجماعة» .
(٣) فى العقد «تكلف ما ليس علىّ» .
(٤) انظر العقد الفريد (٦/ ١٥٥) وعيون الأخبار (٣/ ٢٧٣) ونثر الدر (٣/ ٢٨٣) وفى العيون وأكلى وحدى هو الأكل الأصلى .
(٥) الرِّشَا : هى ما يعطيه الراشى للحاكم وغيره لقضاء ما يريد .
(٦) التدنيق : التضييق فى النفقة .
(٧) الجردقة : الغليظ من الخبز .
(٨) الأشنان : نبات تغسل به الثياب وتنظف به الأيدى .
(٩) الكرخ : محلة ببغداد على الشاطئ الغربى من نهر دجلة .
(١٠) يطفر : طفر الجدول : قفز من فوقه وتخطاه إلى ما وراءه .

الجَدْوَلَ ، أو يُعَدِّى النهرَ ، قالَ لهُ : مكانَكَ ، فإنَّ العجلَة منْ عملِ الشيطانِ ! فوقَفَ الرجلُ .

فأقبلَ عليهِ الخُرَاسَانىُّ وقالَ : تريدُ ماذَا ؟ قالَ : أريدُ أنْ أتغدَّى . قَالَ : ولِمَ ذلِكَ ؟ وكيفَ طَمِعْتَ فى هذَا ؟ ومَنْ أباحَ لكَ مالِى ؟ قالَ الرجلُ : أَوَ ليسَ قدْ دعوتَنى ؟ قالَ : وَيْلَكَ ! لوْ ظننتُ أنَّكَ هكَذا أَحْمَقُ ما رددتُ عليكَ السلامَ . الآنَ[1] فيما نحنُ فيهِ أنْ نكونَ إذَا كنتُ أنَا الجالسَ وأنتَ المارَّ ، تبدأ أنتَ فتسلِّمُ. فأقولُ أنا حينئذٍ مُجِيبًا لكَ : وعليكُم السَّلامُ . فإنْ كنتُ لا آكلُ شيئًا سكتُّ أنَا ، وسكتَّ أنتَ ، ومضيتَ أنتَ ، وقعدتُ أنَا علَى حالِى !

وإنْ كنتُ آكلُ فهاهُنَا بيانٌ آخَرُ : وهُو أنْ أبدأَ أنَا ، فأقولَ : هَلُمَّ ، وتجيبَ أنتَ ، فتقولَ : هَنيئًا . فيكون كلامٌ بكلامٍ . فأمَّا كلامٌ بفَعَالٍ ، وقولٌ بأَكْلٍ ، فهذَا ليسَ منَ الإنصافِ ! وهذَا يُخْرِجُ علينَا فَضْلًا كثيرًا !

قالَ : فَوَرَدَ علَى الرجلِ شىءٌ لمْ يكنْ فى حِسابِه . فَشُهِر بذلكَ فى تلكَ النَّاحيةِ، وقيلَ لهُ : قدْ أَعْفَيناكَ منَ السَّلاَمِ ومنْ تَكَلُّفِ الردِّ . قالَ : ما بِى إلَى ذلكَ حاجةٌ . إنَّما هُو أَنْ أُعْفِىَ أنَا نفسى مِنْ هَلُمَّ[2] وقد استقامَ الأمرُ !

(كذب بكذب)

ومِثْلُ هذَا الحدِيث ما حدَّثنى به محمدُ بنُ يَسِيرٍ ، عنْ والٍ كانَ بفارِسَ ، إمَّا أن يكونَ خالدًا أخَا مَهْرَوَيْهِ أو غيرَه . قالَ : بَيْنَا هُو يومًا فى مجلسِ ، وهُو مشغولٌ بِحِسَابِه وأمْرِه ، وقدْ احتجبَ جُهْدَه ، إذْ نَجَمَ شاعرٌ مِن بينِ يَدَيْه ، فأنشدهُ شِعرًا مدحَه فيهِ وَقَرَّظَه[3] ومَجَّدَه . فلمَّا فرغَ قالَ : قدْ أحسنتَ . ثُم أقبلَ علَى كاتبِه فقالَ : أَعْطِه عَشَرَةَ آلافِ دِرْهَم . ففرِحَ الشاعرُ فرحًا قدْ يُسْتَطَارُ لهُ . فلمَّا رأَى حالَه قالَ : وإنِّى لأَرَى هذَا القولَ قدْ وقعَ منكَ هذَا المَوْقِعَ ؟ اجعلْها عشرينَ ألفَ دِرْهم . وكادَ الشاعرُ يخرجُ منْ جِلْدِهِ ! فلمَّا رأَى فرحَه قدْ تَضَاعَفَ قالَ : وإنَّ فرحَك لَيَتَضَاعَفُ عَلى قَدْرِ تَضَاعُفِ القولِ ! أعطِهِ يا فلانٌ أربعينَ ألفًا . فكادَ الفرحُ يقتلُه . فلمَّا رجعتْ إليهِ نَفْسُه قالَ لهُ : أنتَ - جُعِلتُ فِدَاكَ ! - رجلٌ كريمٌ. وأنَا أعلمُ أنكَ كلَّما رأيتَنى قدْ ازددتُ فرحًا زِدتَنى فى الجائزةِ . وقَبُولُ هذَا مِنكَ لا يكونُ إلاَّ مِنْ قِلَّةِ الشكرِ لهُ ! ثم دعَا لهُ وخرجَ .

قالَ : فأقبلَ عليه كاتبهُ فقالَ : سبحانَ اللَّه ! هذَا كانَ يَرْضَى منكَ بأربعينَ درهمًا ، تأمرُ له بأربعينَ ألفَ درهم ! قالَ : وَيْلَكَ ! وترِيدُ أن تُعْطِيَه شيئًا ؟ قالَ : ومِن إنْفاذ أمرِك بُدٌّ ؟ قال : يا أحمق ، إنَّما هذا رَجُلٌ سرَّنا بكلامٍ ، وسَرَرْنَاه بكلامٍ ! هُو حينَ زَعَمَ أنِّى أحسنُ من القمرِ ، وأشدُّ من

---

(١) الآيين : بمعنى العادة أو القانون ، أصله أعجمى كما جاء فى شفاء العليل .

(٢) هَلُمَّ : أرحت نفسى من دعوة الناس إلى طعام بقولى لهم تعالوا .

(٣) قَرَّظه : مدحه وأثنى عليه .

الأسدِ ، وأنَّ لِسانى أَقْطَعُ منَ السيفِ ، وأنَّ أمْرِى أَنْفَذُ من السِّنانِ ، جَعَلَ فى يَدِى من هذا شيئا أرجعُ بهِ إلى شيءٍ ؟ لسنَا نعلمُ أنَّه قد كذبَ ؟ ولكنَّه قد سرّنا حينَ كَذَبَ لنَا . فنحنُ أيضًا نَسرُّهُ بالقولِ ، ونأمرُ له بالجوائزِ ، وإنْ كانَ كذِبًا . فيكونُ كَذِبٌ بكذبٍ ، وقولٌ بِقَوْلٍ . فأمَّا أَنْ يكون كذِبٌ بصِدقٍ ، وقَوْلٌ بِفِعلٍ ، فهذَا هو الخُسْرانُ الذِى ما سَمِعْتُ به !

(فهم عقيم)

ويقالُ : إنَّ هذَا المَثَلَ الذِى قدْ جَرَى علَى ألسنةِ العوامِّ مِنْ قولِهم : ينظرُ إلىَّ شَزْرًا[1] ، كأنِّى أكلتُ اثنينِ وأطعمتهُ واحدًا ، إنَّما هُو لأهلِ مَرْوَ .

قالَ : وقال المَرْوَزِىُّ : لولاَ أنِّى أبنِى مدينةً لبنيتُ آرِيًّا[2] لدابَّتِى .

قالَ : وقلتُ لأحمدَ بنِ هِشام ، وهُو يبنى دارَهُ ببغدادَ : إذَا أرادَ الله ذَهَابَ مالِ رجلٍ سلَّط عليه الطِّينَ والماءَ . قالَ : لاَ ، بلْ إذَا أرادَ الله ذَهَابَ مالِ رجُل جَعَلَه يَرْجُو الخلفَ ! والله ما أهلكَ الناسَ ، ولا أَفْقَرَ بيوتَهُم ، ولا تركَ دُورهُم بَلاقِعَ[3] إلاَّ الإيمانُ بالخَلَفِ ! وما رأيت جُنَّةً قطُّ أَوْقَى منَ اليأْسِ !

(استحق الحرمان)

قالَ : وسَمِعَ رجلٌ مِن المَرَاوِزَةِ الحسنَ وهُو يَحُثُّ الناسَ علَى المعروفِ ، ويأمرُ بالصَّدقةِ ، ويقولُ : ما نَقَصَ مالٌ قَطُّ منْ زكاةٍ ، ويَعِدُهُمْ سُرْعةَ الخَلَفِ . فتصدّقَ بماله كلِّه ، فافتقرَ . فانتظَر سنةً وسنةً . فلمَّا لم يَرَ شيئًا بكّر علَى الحسنِ فقالَ : حَسَنٌ ما صنعتَ بِي ! ضَمِنْتَ لِي الخلَفَ ، فأنفقتُ علَى عِدَتِك . وأنَا اليومَ مُذْ كذَا وكذَا سنةً أنتظِرُ ما وعدتَ ، لا أرى منهُ قليلًا ولا كثِيرًا ! هذَا يَحِلُّ لكَ ؟ آللصُّ كانَ يصنعُ بِى أكثَرَ منْ هذَا ؟

والخَلَفُ يكونُ مُعَجَّلًا ومُؤَجَّلًا . ومَنْ تَصَدَّق وتَشَرَّطَ الشُّروطَ ، استحقَّ الحِرْمَانَ . ولو كانَ هذَا علَى ما تَوَهَّمهُ المَرْوَزِىُّ لكانَتِ المِحْنَةُ فيهِ ساقطةً ، ولَتَرَكَ النَّاسُ التِّجارةَ ، ولمَا بَقِىَ فقيرٌ ، ولَذَهبتِ العبادَةُ .

أصبحَ ثُمَامَةُ شديدَ الغمِّ حينَ احترقتْ داره . وكانَ كلَّما دخَل عليهِ إنسانٌ قالَ : الحريقُ سريعُ الخلفِ ! فلمّا كَثرَ ذلكَ القولُ منهُم قالَ : فَلْنستحرِق اللَّه[4] ! اللهُم إنِّى أستحْرِقُك ، فأحرِقْ كلَّ شيءٍ لنَا !

وليسَ هذَا الحديثُ منْ حديثِ المراوِزةِ ، ولكنَّا ضَمَمْناهُ إلَى ما يُشَاكِلُه .

---

(١) الشزر : نظرة الإعراض أو الغضب أو الاستهانة .

(٢) الآرى : محبس الدابة .

(٣) بلاقع : جمع البلقع ، وهو الخالى من كل شىء .

(٤) فَلْنستحرِق الله : أى نطلب من الله أن يحرق أشياءنا حتى يعوضنا منها الخلف السريع .

(خوف على النّعال)

قال سَجَّادةُ ، وهو أبو سَعِيدٍ سجَّادة : إنّ أُناسًا منَ المَرَاوِزَةِ إذَا لَبِسُوا الخِفَافَ فى السّتّةِ الأشهرِ الَّتى لا ينزِعُونَ فيهَا خفافَهُم ، يمشونَ علَى صُدُورِ أقدامِهم ثلاثةَ أشْهُرٍ ، وعلَي أعْقابِ أرجُلِهِم ثلاثةَ أشْهُرٍ ، حتَّى يكونَ كأنَّهم لم يلبسُوا خِفَافَهم إلاَّ ثلاثةَ أشهرٍ ، مخافةَ أن تَنْجردَ نِعالُ خِفافِهم أو تَثْقَبَ .

وحكَى أبُو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ سَيَّارٍ النظّامُ عنْ جَارِه المروزِىِّ ، أنَّه كانَ لا يلبَس خُفًّا ولا نعلًا ، إلَى أنْ يذهبَ النَّبْقُ[1] اليابِسُ ، لكثرةِ النَّوَى فى الطريقِ والأسواقِ.

قالَ : ورآنِى مَرَّةً مَصَصْتُ قَصَبَ سُكَّر ، فجمعتُ ما مصصتُ ماءهُ لأرمِىَ بهِ . فقالَ : إنْ كنتَ لا تَنُّورَ لكَ ولا عِيالَ ، فَهَبْهُ لِمَنْ له تَنُّورٌ وعليه عِيالٌ . وإيَّاكَ أنْ تُعَوِّد نفسكَ هذِهِ العادةَ فى أيَّام خِفَّةِ ظهرِكَ ؛ فإنَّك لا تدْرِى ما يأتيكَ منَ العيالِ.

(قصّةُ أهلِ البَصرة مِنَ المَسجِدِيّين[2])

قالَ أصحابُنا منَ المسجِدِيّين : اجتمعَ ناسٌ فى المسجدِ ممنْ يَنتَحِلُ الاقتصادَ فى النفقَةِ ، والتَّنمِيةَ للمالِ ، منْ أصحابِ الجَمْعِ والمنْعِ . وقدْ كانَ هذَا المذهبُ صارَ عِندَهم كالنَّسَبِ الذى يَجْمَعُ علَى التَّحابِّ ، وكالحَلِف الَّذِى يَجْمَعُ على التَّناصرِ . وكانُوا إذَا التقوْا فى حَلَقِهم تذاكرُوا هذَا البابَ ، وتطارحُوهُ وتدارسُوهُ .

فقالَ شيخٌ منهُم : ماءُ بئرنَا - كما قَد علمتُم - مِلْحٌ أُجاجٌ لا يَقْرَبُه الحِمارُ ، ولا تُسِيغهُ الإبِلُ ، وتموتُ عليهِ النخلُ . والنَّهر منَّا بعِيدٌ . وفى تكلُّفِ العَذْبِ علينَا مُؤْنةٌ . فكنَّا نمزُجُ منهُ للحمارِ ، فاعتلَّ عنهُ ، وانتقَضَ علينا منْ أجلِه . فصرنَا بعدَ ذلكَ نُسقيهِ العذبَ صِرْفا .

وكنتُ أنَا والنعجةُ كثيرًا ما نغتسِلُ بالعذْبِ ، مخافَةَ أنْ يعترِىَ جُلودَنا منهُ مثلُ ما اعترَى جَوْفَ الحِمارِ . فكانَ ذلكَ الماءُ العذبُ الصافى يذهبُ باطِلا.

ثم انفتحَ لى فِيه بابٌ منَ الإصلاحِ ، فَعَمَدْتُ إلَى ذلكَ المتوضَّإِ ، فجعلتُ فى ناحيةٍ منه حُفْرةً ، وصَهْرَجْتُها[3] وملَّستُها ، حتَّى صارتْ كأنَّها صخرةٌ مَنْقورةٌ . وصوَّبتُ إليَها المَسِيلَ . فنحنُ الآنَ إذاً اغتسلنَا صارَ الماءُ إليها صافيًا ، لم يُخَالطْه شىءٌ . والحمارُ أيضا لا تَقْزُزَ له (منه) . وليسَ علينَا حَرَجٌ فى سَقْيِه منهُ . وما علِمْنا أنَّ كِتابًا حرَّمهُ ، ولا سنَّةً نهتْ عنهُ . فربِحْنا هذه منذُ أيَّام ، وأسقطنَا

---

(١) النَّبق : ثمرة السدر ، وفى التنزيل : ﴿ وَنَخْلٍ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: ١٦] .

(٢) المسجديين : طائفة من البخلاء يجتمعون فى المساجد .

(٣) صَهْرَجْتُها : يقال صهرج الحوض ونحوه ، أى طلاه بالصاروج وهو القطران .

مُؤْنةً عن النفسِ والمالِ ، مَال القومِ . وهذَا بتوفيقِ اللَّهِ ومَنِّهِ .

(طريقة مرضية)

فأقْبلَ عليهم شيخٌ فقالَ : هلْ شَعَرْتُم بموتِ مَريمَ الصَّنَاعِ[1] فإنَّها كانتْ منْ ذَواتِ الاقتِصادِ ، وصاحِبَةَ إصْلاحٍ . قالُوا : فحدِّثنَا عنَها . قالَ : نوادِرُها كثيرةٌ ، وحديثها طويلٌ . ولكنِّى أخبِركُم عنْ واحدةٍ فيها كِفايةٌ . قالُوا : ومَا هِيَ ؟ قالَ : زوَّجَتِ ابنتَهَا ، وهيَ بنتُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ، فحلَّتهَا الذهبَ والفِضَّةَ ، وكَستْها المَرْوِيَّ والوَشْيَ والقَزَّ والخَزَّ ، وعلَّقتِ المُعَصْفَرَ ، ودقَّتِ الطِّيبَ ، وعظَّمتْ أمرَها فى عَيْنِ الخَتَنِ[2] ، ورفعتْ مِنْ قَدْرهَا عِندَ الأَحْمَاءِ[3] .

فقالَ لهَا زوجُها : أَنَّى هذَا يا مريَم ؟ قالتْ : هُوَ منْ عِندِ الله . قالَ : دَعِى عنْكِ الجُمْلَةَ ، وهاتِى التفسيرَ . واللهِ ما كُنتِ ذاتَ مالٍ قديمًا ، ولا وَرِثْتِه حدِيثًا . وما أنتِ بخائنةٍ فى نفسكِ ، ولا فِي مالِ بَعْلكِ . إلاَّ أنْ تكونِى قدْ وَقَعْتِ على كَنْزٍ ! وكيفَ دارَ الأمرُ فقدْ أسقطتِ عنِّى مُؤْنةً ، وكَفَيْتِنِى هذهِ النائِبةَ .

قالتْ : اعلَم أَنِّى مُنْذُ يومَ ولدتُها إلَى أنْ زوَّجتُها ، كنتُ أرفعُ مِن دقيقِ كلِّ عَجْنَةٍ حَفْنَة . وكنَّا - كمَا قَد علمتَ - نخْبِزُ فى كلِّ يومٍ مَرَّةً . فإذَا اجتمعَ مِنْ ذلكَ مَكُوكٌ بعتُه[4] .

قالَ زوجُها : ثَبَّتَ اللَّهُ رأيَكِ وأرشَدكِ ! ولقَد أسعدَ اللَّهُ مَنْ كنتِ له سَكَنًا، وبارَكَ لمِن جُعِلْتِ لهُ إلْفا ! ولهذا وشِبْهِه قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : مِنَ الذَّوْدِ إلى الذَّوْدِ إبلٌ[5] . وإنِّى لأرجُو أن يَخْرُجَ ولَدُكِ علَى عِرْقكِ الصالحِ، وعلَى مَذْهبِك المحمودِ .

وما فَرَحِى بهذا مِنْكِ بأشدَّ مِنْ فرحِى بما يُثَبِّتُ الله بِك فى عَقِبى مِنْ هذه الطريقةِ المَرْضيَّة .

فنهضَ القومُ بأجْمعِهم إلَى جَنَازتهَا ، وصلَّوْا عليهَا . ثم انْكَفَئُوا إلَى زوجِهَا[6] ، فعزَّوْه علَى مصيبتِه ، وشاركُوه فى حُزْنِهِ .

(شيوخ يتحدثون ناصحين)

ثُم اندفعَ شيخٌ منهُم فقالَ : يا قَوْمُ ، لا تَحْقِروا صِغارَ الأمورِ ، فإنَّ أوّل كلِّ كبيرٍ صغيرٌ . ومتَى شاءَ الله أنْ يُعَظِّمَ صغِيرًا عظَّمهُ ، وأن يُكَثِّر قليلًا كثَّرهُ . وهل بُيُوتُ الأموالِ إلاَّ دِرهمٌ إلَى دِرهمٍ ؟

---

(١) مَريم الصَّنَاع : امرأة ماهرة بعمل اليدين اشتهرت بهذا اللقب .
(٢) الخَتَن : كل من كان مِن قبل المرأة كأبيها وأخيها وكذلك زوج البنت أو زوج الأخت .
(٣) الأَحْمَاء : مَنْ كان مِن قبل الزوج كأبيه وأخيه وعمه .
(٤) مَكُوك : مكيال قديم يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه فى البلاد .
(٥) الذود من الإبل : ما بين الثَّنتَيْن إلى التِّسْع ، وقيل : ما بين الثلاث إلى العَشْر . واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها . والحديث الوارد فى ذلك عن النبى ﷺ : ليس فيما دُون خَمْس ذَوْدٍ صَدَقةٌ .
(٦) انكَفَئوا إلى زوجها : أى رجعوا إليه .

وهلْ الذَّهبُ إلا قِيراطٌ إلى جَنبِ قيراطٍ ؟ وليسَ كذلكَ رَمْلُ عالجِ[1] وماءُ البحرِ ؟ وهلْ اجتمعتْ أموالُ بيوتِ الأموالِ إلاَّ بدرهمٍ مِنْ ها هنَا ودرهمٍ منْ ها هُنا ؟

فقدْ رأيتُ صاحبَ سَفَطٍ قدْ اعْتَقَدَ مائةَ جَرِيبٍ[2] فى أرضِ العربِ . ولَرُبَّما رأيتُه يبيعُ الفُلْفلَ بقيراطٍ ، والحِمِّصَ بقيراطٍ ، فأَعْلَمُ أنه لمَ يربحْ فى ذلكَ الفلفلِ إلاَّ الحبَّة والحبتين من خشب الفُلْفُلِ . فلمْ يزل يجمعُ مِنَ الصِّغارِ الكِبارَ ، حتَّى اجتمعَ ما اشترَى بهِ مائةَ جَرِيب ! .

ثُم قالَ : اشتكيتُ أيَّامًا صَدْرِى منْ سُعال كانَ أصابنى ، فأمرنى قَوْمٌ بالفَانِيذِ[3] السُّكَّرِىِّ . وأشارَ علىَّ آخرون بالحَرِيرةِ تتَّخذ من النَّشَاستَج والسكَّر ودُهنِ اللَّوْز ، وأشباهِ ذلك . فاستثقلتُ المُؤْنةَ ، وكَرِهتُ الكُلْفةَ ، ورجوتُ العافيةَ . فبينَا أنَا أدافِع الأيامَ ، إذْ قالَ لي بعضُ المُوَفَّقِين : عليك بماءِ النُّخالةِ فاحْسُهُ حارًّا . فحسوْتُ ، فإذا هو طيِّب جِدًّا ، وإذا هو يَعْصِم : فما جُعْتُ ولاَ اشتهيتُ الغداءَ فى ذلكَ اليومِ إلَى الظُّهرِ . ثُم ما فرغتُ من غَدَائى وغَسْلِ يدىَّ حتَّى قاربْتُ العصرَ . فلمَّا قَرُبَ وقتُ غدائى مِن وَقْتِ عَشَائِى طويتُ العشاءَ ، وعرفتُ قَصْدِى .

فقلتُ للعجوزِ : لم لاَ تَطْبُخِينَ لعِيَالِنَا فى كُلِّ غَدَاةٍ نُخَالةً ؟ فإنَّ ماءهَا جِلاءٌ للصدرِ ، وقوتَها غِذاءٌ وعِصْمةٌ ؛ ثم تجَفِّفِينَ بَعْدُ النخالةَ ، فتعود كما كانتْ . فتبيعينَ إذًا الجميعَ بِمِثْلِ الثَّمنِ الأولِ ، ونكونُ قدْ ربِحْنَا فَضْلَ ما بين الحالين ! قالتْ : أرجوُ أنْ يكونَ الله قدْ جَمَعَ بهذا السُّعَالِ مصالِحَ كثيرةً ، لِمَا فتح اللهُ لكَ بهذِه النُّخالةِ الَّتى فيها صَلاَحُ بدنِك ، وصلاحُ معاشِكَ !

وما أَشُكُّ أنَّ تلكَ المَشُورَةَ كانتْ منَ التوفيقِ !

قالَ القومُ : صدقتَ ، مِثْلُ هذَا لا يُكْتَسَبُ بالرأْيِ ، ولا يكونُ إلاَّ سَمَاوِيًّا !

ثُم أقبلَ عليهم شيخٌ فقالَ : كنَّا نَلْقَى منَ الحُرَاقِ والقَدَّاحَةِ جَهْدًا ، لأنَّ الحِجارةَ كانتْ إذاَ انكسرتْ حُرُوفُها واستدارتْ ، كلَّتْ ولم تَقْدَحْ قَدْحَ خَيْرٍ ، وأَصْلَدَتْ فلمْ تُورِ[4] . وربَّما أَعْجَلَنا المطرُ والوَكْفُ . وقدْ كانَ الحجرُ أيضًا يأخُذُ منْ حُروفِ القدَّاحةِ ، حتَّى يَدَعَها كالقَوْسِ .

فكُنتُ أَشْترِى المَرْقَشِيتَا[5] بالغَلاءِ ، والقدَّاحَةَ الغليظةَ بالثمنِ المُوجِعِ .

وكانَ علينَا أيضًا فى صَنْعةِ الحُرَاقِ وفى مُعَالجة القُطْنَةِ مُؤْنةٌ ، ولهُ رِيحٌ كَرِيهةٌ . والحُرَاقُ لا يجيءُ من الخِرَقِ المصبوغةِ ، ولا منَ الخِرَقِ الوَسِخَةِ ، ولا منَ الكَتَّانِ ، ولا منَ الخُلْقَان .

فكُنا نشتِريهِ بأغلَى الثَّمنِ . فتذاكرنَا مُنْذُ أيامِ أَهْلَ البَدْوِ والأعرابَ ، وَقَدْحَهمُ النَّارَ بالمَرْخِ والعَفَارِ[6] . فزعَم لنَا صديقُنا الثَّوْرِىُّ وهوَ - ما علِمتُ - أحدُ المُرْشِدِين ، أنَّ عراجِينَ الأَعْذاقِ[7]

---

(١) عالِج : موضع ببادية العرب معروف بكثرة الرمل .

(٢) جَرِيب : قطعة من الأرض يختلف مقدارها بحسب اصطلاح أهل الإقليم . (٣) الفانيذ : نوع من الحلواء .

(٤) لم تُورِ : أى لم تخرج نارًا . (٥) المَرْقَشِيتَا : قطعة من الحديد كانت تقدح عليها النار .

(٦) العَفَار : شجيرة من الفصيلة الأريكية لها ثمر لبى أحمر ويتخذ منها الزناد فيسرع الورى .

(٧) الأَعْذاق : مفردها العذق ، وهو كل غصن له شعب ، أو قنو النخلة ، أو عنقود العنب ، والعرجون العذق إذا يبس واعوج .

تَنُوبُ عنْ ذلكَ أَجْمَع . وعلِّمنى كيفَ تُعالَج. ونحنُ نُؤْتَى بهَا منْ أرضِنَا بلاَ كُلْفةٍ . فالخادمُ اليومَ لا تَقْدَحُ ولا تورِى إلاَّ بالعُرْجُونِ .

قالَ القومُ : قدْ مَرَّتْ بنَا اليومَ فوائدُ كثيرةٌ . ولهذَا قالَ الأولُ : مُذَاكَرَةُ الرِّجال تُلْقِحُ الألبابَ .

(شأن معاذة العنبرية)

ثُمَّ انْدَفع شيخٌ منهُم فقالَ : لَمْ أرَ فى وَضْعِ الأُمُورِ مواضِعَها ، وفى تَوْفيتِها غايةَ حُقُوقِهَا ، كُمُعَاذَةَ العَنْبَرِيَّةِ . قالوُا : وما شأْنُ مُعَاذَةَ هذهِ ؟ قالَ : أَهْدَى إليَها العامَ ابنُ عمٍّ لها أُضْحِيَّةً. فرأيتُها كَئِيبةً حزينةً ، مُفَكِّرة مُطْرِقةً . فقلتُ لها : ما لكِ يا مُعَاذةُ ؟ قالتْ : أنا امرأةٌ أَرْمَلَةٌ ، وليسَ لِى قَيِّم . ولا عَهْدَ لى بتدبير لحمِ الأَضَاحِيِّ . وقد ذهبَ الذينَ كانُوا يُدَبِّرونهُ ويَقُومُون بِحقِّهِ . وقدْ خِفْتُ أن يَضِيعَ بعضُ هذه الشَّاةِ . ولستُ أعرِفُ وَضْعَ جميعِ أجزائِها فى أماكِنهَا . وقدْ علمتُ أنَّ اللَّه لم يَخلُق فيهَا ولا فى غيرها شيئًا لا منفعةَ فيهِ . ولكنَّ المرءَ يَعْجِز لا مَحَالَةَ . ولستُ أخافُ مِنْ تَضْييعِ القليلِ ، إلاَّ أنَّه يَجُرُّ تضييعَ الكثيرِ .

أمَّا القَرْنُ فالوَجْهُ فيه معروفٌ ، وهُو أنْ يُجْعَل كَالخُطَّافِ ، ويُسَمَّرَ فى جِذْعٍ مِن جُذُوعِ السَّقْفِ ، فَيُعَلَّقَ عليه الزُّبُل[1] والكِيرانُ[2] ، وكلُّ ما خِيفَ عليهِ منَ الفَأْر والنَّملِ والسَّنانير ، وبناتِ وَرْدَانَ[3] والحيَّاتِ ، وغيرِ ذلكَ . وأمّا المُصْرَانُ فإنَّه لأَوْتار المِندفَةِ[4] وبنَا إلى ذلكَ أعظمُ الحاجةِ . وأمّا قِحْفُ[5] الرأسِ واللحْيَانِ وسائِرُ العظامِ ، فسَبِيله أنْ يُكَسَّر بعدَ أنْ يُعْرَق ، ثم يُطْبخَ . فما ارتفعَ من الدّسمِ كانَ للمِصباحِ وللإدامِ وللعَصِيدةِ ، ولغير ذلكَ . ثم تؤخذُ تلكَ العِظامُ فَيُوقَدُ بهَا . فلم يَرَ الناسُ وَقُودًا قَطُّ أصْفَى ولا أحسَنَ لَهَبًا منهَا . وإذَا كانتْ كذلكَ فهىَ أسْرَعُ فى القِدْر ، لِقِلة ما يُخَالِطُها منَ الدُّخَانِ . وأمَّا الإهابُ فالجِلْدُ نَفْسُه جِرَابٌ . وللصُّوف وُجُوه لا تُدْفع . وأمّا الفَرْثُ والبَعْرُ فحطَبٌ إذا جُفِّفَ عَجِيب .

ثم قالتْ : بَقِىَ الآنَ علينَا الانتفاعُ بالدَّمِ . وقدْ علمتُ أنَّ الله - عزَّ وجلَّ- لم يُحَرِّم مِنَ الدَّمِ المَسْفُوحِ إلا أكلَه وشرْبَهُ ، وأَن له مواضِعَ يجوزُ فيها ولا يُمنَع منهَا . وإنْ أنَا لم أَقَعْ علَى عِلْمِ ذلكَ ، حتَّى يُوضَع مَوْضِعَ الانتفاعِ بهِ ، صار كَيَّةً فى قَلْبِى ، وقَذى فى عَيْنِى ، وهَمًّا لا يزالُ يُعَاوِدُنى .

فلَم ألْبَثْ أَنْ رأيتُها قدْ تَطَلَّقتْ وتبسَّمت . فقلتُ : ينبغِى أنْ يكونَ قدْ انفتَح لكِ بابُ الرأْيِ فى الدم . قالتْ : أَجَلْ ، ذكرتُ أنَّ عِندى قُدُورًا شامِيَّةً جُدُدًا . وقدْ زعمُوا أنَّه ليسَ شىءٌ أَدْبَغَ ولا أَزْيَدَ فى قُوَّتِها ، من التلطيخِ بالدَّمِ الحارِّ الدَّسِم . وقدْ استرحتُ الآنَ ، إذْ وقعَ كلُّ شىءٍ مَوْقِعَهُ !

---

(١) الزُّبُل : جمع زبيل ، وهو القفة أو الوعاء أو الجراب . (٢) الكِيران : جمع كور ، وهو الرحل .

(٣) بنات وردان : هى الصراصير . (٤) المندفة : ما يضرب به القطن ليرق . (٥) القحف : أعلى الدماغ من العظم .

قالَ : ثمُ لقِيتُها بعدَ ستَّةِ أشهرٍ ، فقلتُ لهَا : كيفَ كانَ قَدِيدُ[1] تِلكَ الشَّاةِ ؟ قالتْ : بأَبِى أنتَ ! لم يجئْ وقتُ القَدِيد بَعْدُ ! لنَا فى الشَّحْمِ والأَلْيَةِ والجُنُوبِ والعَظْمِ المَعْرُوق وغيرِ ذلكَ مَعَاشٌ ! ولكل شىءٍ إبَّان !

فقبضَ صاحبُ الحمارِ والماءِ العَذْبِ قَبْضَةً منْ حَصًى ، ثم ضربَ بهَا الأرضَ . ثم قال : لا تعلمُ أنَّك منَ المُسْرفينَ ، حتى تسمعَ بأخبارِ الصالحينَ!

(قِصَّةُ زُبَيْدَةَ بنِ حُمَيْدٍ)

وأما زُبَيْدةُ بنُ حَمَيدٍ الصَّيرفى[2] ، فإنَّه استلَفَ مِنْ بَقَّالٍ كانَ علَى بابِ دارِه دِرْهمَيْن وقِيراطًا . فلمَّا قضَاهُ بعدَ سِتَّةِ أشْهُرٍ ، قضَاهُ درهمَيْنِ وثَلاثَ حبَّاتِ شَعِيرٍ[3] . فاغتاظَ البقَّالُ ، فقالَ : سبحانَ الله ! أنتَ ربُّ مائةِ أَلفِ دينارٍ ، وأنَا بقَّالٌ لاَ أَملِكُ مائةَ فَلْسٍ ، وإنَّما أعَيشُ بكَدِّى ، وباسْتِفْضَالِ الحبَّة والحبَّتَيْن . صاحَ علَى بابكَ حَمَّالٌ ، والمالُ لم يَحْضُرْكَ ، وغابَ وكيلُك ، فَنَقَدتُ عنكَ دِرهمينِ وأربعَ شعيراتٍ . فَقضيتَنى بعدَ سِتَّةِ أشهرٍ درهمَيْنِ وثلاثَ شعيراتٍ . فقالَ زُبَيْدَةُ : يَا مجنونُ! أَسلفتنى فى الصيفِ ، فقضيتُك فى الشتَاءِ . وثلاثُ شَعِيراتٍ شَتْوِيَّة نَدِيَة ، أَوْزَنُ منْ أربعِ شعيراتٍ يابسةٍ صَيْفِيَّةٍ . ومَا أشكُّ أنَّ معكَ فَضْلًا[4] !

وحدَّثنى أبُو الأَصْبَغِ بن ربْعِىٍّ ، قالَ : دخلتُ عليهِ بعدَ أنْ ضربَ غِلْمانَه بيومٍ ، فقلتُ لهُ : ما هذَا الضربُ المُبَرِّحُ ؟ وهذَا الخُلُق السَّيِّئُ ؟ هؤلاءِ غلمانٌ ، ولهم حُرْمَةٌ وكِفايةٌ وتربيةٌ . وإنما هم وَلَدٌ . هؤلاءِ كانُوا إلَى غيرِ هذَا أَحْوَجَ . قالَ : إنَّك لستَ تَدْرِى أنَّهُم أكلوا كلَّ جُوَارِشْنٍ كانَ عندِى !

قالَ أبو الأَصْبَغِ : فخرجتَ إلَى رئيسِ غِلمانِه ، فقلتُ : وَيْلَك ! ما لَكَ وللجُوَارِشْنِ ؟ وما رَغْبَتُك فيهِ ؟ قالَ : جُعِلتُ فِداكَ ! ما أقدِرُ أنْ أكَلِّمكَ منَ الجوعِ إلاَّ وأنَا مُتَّكِئٌ ! الجُوَارِشْنُ ! ما أصنعُ بهِ ؟ هُو نَفْسُه ليسَ يُشْبِعُ ، ولا نَحْتاجُ إلَى الجُوَارِشْنِ ، ونحنُ الذينَ إنَّما نسمعُ بالشِّبَعِ سماعًا مِنْ أفواهِ النَّاسِ ! ما نَصْنَعُ بالجُوَارِشْن ؟

واشتدَّ علَى غلمانِه فى تَصْفِيةِ الماءِ ، وفى تَبْرِيدِه وتزميلِه[5] لأصْحابِه وزُوَّارِه . فقالَ لهُ غَازِى أبو مُجَاهِد : جُعِلتُ فِدَاكَ ! مُرْ بتزميلِ الخبزِ وتكثيرِه ، فإنَّ الطعامَ قبلَ الشَّرابِ .

وقالَ مَرَّةً : يا غلاَمُ ، هاتِ خُوَان النَّرْدِ[6] وهو يريدُ تَخْتَ النَّرْدِ . فقالَ له غَازى : نحنُ إلَي خِوانِ

---

(١) القَدِيدُ : هو اللحم المملوح المجفف فى الشمس . (٢) فى نثر الدر «الصيارفة» .

(٣) المقصود مقدار وزنها من الفضة .

(٤) انظر نثر الدر (٣/ ٤٨٢) .

(٥) تزميله : تغطيته ولفه بغطاء مبلول ليبرد . وفى التنزيل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل : ١ ، ٢] .

(٦) النَّرْد : لعبة ذات صندوق وحجارة وفصين تعتمد على الحظ وتنقل فيها الحجارة على حسب ما يأتى به الحظ وتعرف عند العامة (بالطاولة) .

الخبز أَحْوَج .

(هبة السكران)

وسَكِرَ زُبيدةُ ليلةً فكسَا صديقًا له قميصًا . فلمَّا صارَ القميصُ علَى النديم خافَ البَدَوَاتِ[1] ، وعلمَ أنَّ ذلكَ مِنْ هَفَوَاتِ السُّكرِ . فمضَى مِنْ ساعتِه إلَى منزلِهِ ، فجعلَه بَرْنَكَانًا[2] لامْرأته .

فلَّما أصبحَ سألَ عنِ القميصِ وتَفَقَّدهُ ، فقيلَ له : إنَّكَ قدْ كَسَوْتَه فُلانًا . فبعثَ إليهِ ، ثُم أقبلَ عليهِ ، فقالَ : ما علمتَ أنَّ هِبَةَ السّكرانِ وشِراءَهُ وبَيْعَهُ وصدقتَه وطَلاقَهُ لا يجوزُ ؟

وبعدُ ، فإنِّى أكرهُ ألاَّ يكونَ لي حَمْدٌ ، وأنْ يُوَجِّه الناسَ هذا مِنِّي علَى السكْرِ . فَرُدَّه علىَّ ، حتَّى أهَبَهُ لكَ صاحِيًا عنْ طِيبِ نفسٍ ؛ فإنِّى أكرهُ أنْ يَذْهبَ شيءٌ منْ مالي باطِلًا .

فلَّما رآهُ قدْ صَمَّم ، أقبلَ عليه فقالَ : يا هَنَاه ! إنَّ النَّاسَ يَمْزَحُونَ ويلعبونَ ، ولا يُؤَاخَذُونَ بشيءٍ من ذلكَ . فَرُدَّ القميصَ ، عافاكَ اللَّهُ ! قالَ لهُ الرجلُ : إنِّى واللَّهِ قدْ خِفتُ هذَا بعينهِ ؛ فلَم أضَعْ جَنْبِى إلَى الأرضِ حتَّى جَيَّبته[3] لامرأتِى . وقدْ زدتُ فى الكُمَّينِ ، وحذفتُ المَقَاديمَ[4] . فإنْ أردتَ بعدَ هذا كلِّه أنْ تأخذَه فخذْه . فقالَ : نعْم آخذُه ، لأنَّه يصلُح لأمْرَأتى كمَا يصلُح لامرأتكَ . قالَ : فإنَّه عندَ الصَّبَّاغِ . قالَ : فَهَاتِه . قالَ : ليسَ أنَا أسلمتُه إليهِ .

فلَّما عَلِمَ أنَّه قدْ وقَع قالَ : بأَبِى وأمِّى رسولُ الله ﷺ ، حيثُ يقولُ : جُمِعَ الشَّرُّ كلُّه فى بيتٍ وأُغلقَ عليهِ ، فكانَ مفْتاحُه السُّكْرَ .

(قِصَّةُ لَيلَى الناعِطِيَّةِ)

وأَمَّا ليلَى الناعِطيَّة[5] ، صاحبةُ الغالِيةِ منَ الشِّيعة[6] ، فإنَّها مازالت تُرَقِّعُ قميصًا لهَا وتَلْبَسُه ، حتَّى صارَ القميصُ الرِّقَاعَ ، وذهَب القميصُ الأولُ . وَرَفَتْ كِساءَهَا ولَبِسته ، حتَّى صارتْ لا تلْبَسُ إلاَّ الرَّفْوَ ، وذهبَ جميعُ الكِساءِ . وسمِعتْ قولَ الشاعرِ :

البَسْ قَمِيصَكَ ما اهتديتَ لِجَيْبِهِ فإذَا أَضَلَّكَ جَيْبُهُ فاسْتَبْدِلِ

فقالتْ : إنِّى إذًا لخرْقاءُ[7] ! أنَا واللهِ أَحُوصُ الفَتْقَ وفتْقَ الفَتقِ ، وأرَقِّع الخَرْقَ وخرقَ الخرْقِ !

---

(١) خاف البَدَوَاتِ : أى ما يظهر من آراء تخالف رأى زبيدة . (٢) بَرْنَكَانًا : أى ثوبًا .
(٣) جَيَّبته : جعلت له جيبا وهو ما يفتح على النحر . (٤) مقاديم القميص : ما استقبلت منه .
(٥) كذا بالأصل ، وهو تحريف . وصوابه : ليلى الناعطية : إحدى نساء الغالية ، منسوبة إلى بنى ناعط ، بالظاء المعجمة ، وهم بطن من العرب . انظر القاموس واللسان والجمهرة (١٢١/٣) من حاشية البيان والتبيين . تحقيق : عبد السلام هارون) .
(٦) الشِّيعة : فرقة كبيرة من المسلمين اجتمعوا على حُبّ علىّ وأحقيته بالإمامة .
(٧) خرْقاء : المرأة غير الصناع : أى التي لم توفق فى عملها .